

الباب الأول

عذاب الدنيا في القرآن والسنة

أنزل الله تعالى القرآن الكريم تبياناً لكل شيء ، وأوضح فيه جزاء الموحدين وعقاب الظالمين ، وجعل النار ردعاً للناشزين عن طريقه المستقيم وجعل البلاء والعذاب في الدنيا لإصلاح ما أفسدته عقول الضالين عن سبيله حتى يتعظوا ويرجعوا إلى طريق الهداية .

ولذلك وبتوفيق من الله قسمت هذا الباب إلى فصول ثلاثة هي:

الفصل الأول: عذاب الدنيا في القرآن الكريم وفي السنة النبوية

الفصل الثاني: عذاب الدنيا لآدم عليه السلام وولده قابيل

الفصل الثالث: عذاب الدنيا لقوم نوح وقوم عاد وقوم ثمود

الفصل الأول

عذاب الدنيا في القرآن الكريم

وردت كلمة العذاب ومشتقاتها في القرآن الكريم في (٣٨٥) موضعا بآيات الله ،
أما كلمة العذاب في الدنيا فلقد وردت في مواضع عدة نذكر منها:

١ - وفي سورة البقرة:

﴿وَإِذْ يَخْتَصِمُكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ٩١﴾ [البقرة: ٩١] .

٢ - وفي سورة البقرة:

﴿وَلَنَلْبِسَكُمْ شِيءًا مِنَ الْغُفَى وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ١٥٥﴾ [البقرة: ١٥٥] .

٣ - وفي سورة المائدة:

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاؤُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾ [المائدة: ٣٣] .

٤ - وفي سورة الأنعام:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَعْتَهُ أَوْ جَهَنَّمَ هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ٤٧﴾ [الأنعام: ٤٧] .

٥ - وفي سورة التوبة:

﴿قَتَلْتَهُمْ فَبَدَّلْتَهُمْ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَتَجَرَّبْتُمْ عَلَيْهِمْ وَتَشَفَّيْتُمْ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ١٤﴾ [التوبة: ١٤] .

٦ - وفي سورة التوبة:

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزَهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٥٥) [التوبة: ٥٥] .

٧ - وفي سورة يونس:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنَّمَا تُعَذِّبُهُمْ بِبَيْنَاتٍ أَوْ هَرَارًا مَادَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (٥٠) [يونس: ٥٠] .

٨ - وفي سورة الكهف:

﴿ قَالَ أَمَأَمَنَ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا ﴾ (٨٧) [الكهف: ٨٧] .

٩ - وفي سورة الحج:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ (٨) [الحج: ٨] .

١٠ - وفي سورة النور:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢٣) [النور: ٢٣] .

١١ - وفي سورة الحشر:

﴿ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴾ (٢) [الحشر: ٢] .

ثواب عذاب الدنيا

في السنة النبوية

من عدل الله ورحمته ؛ أن جعل عذاب الدنيا له فضلاً كبيراً على البشر ، وخيراً عظيماً على المبتلين الصابرين من عباده ، وأجرأً وأسعاً منه سبحانه وتعالى يوم القيامة ، فلا عقابين على ذنب واحد في شريعة الله ، ولا يظلم ربك أحداً .

ولذلك أوحى الله تعالى إلى نبيه ورسوله ﷺ أن يوضح ويبين ثواب عذاب الدنيا ، والفضائل التي يجنيها العبد الصابر في حياته وقبل موته ، وهي :

لحم طيب ودم نقي

أخرج الإمام مالك في الموطأ ، عن عطاء بن يسار (رضى الله عنه) قال : «إذا مرض العبد بعث الله تعالى إليه ملكين ، فقال : انظرا ماذا يقول لعوده ، فإن هو إذا جاؤوه حمد الله وأثنى عليه ، رفعنا ذلك إلى الله عز وجل - وهو أعلم - فيقول : لعبدي على إن توفيته أن أدخله الجنة ، وإن أنا شفيته أن أبدل له لحماً خيراً من لحمه ، ودماً خيراً من دمه ، وأن أكفر عنه سيئاته» .

حظ المؤمن من النار في الدنيا

أخرج ابن ماجه في سننه ، عن أبي هريرة (رضى الله عنه) عن النبي ﷺ أنه عاد مريضاً ومعه أبو هريرة ، من وعك كان به ، فقال رسول الله ﷺ : «أبشر فإن الله يقول : هي نارى - أى الحمى - أسلطها على عبدي المؤمن في الدنيا ، لتكون حظه من النار في الآخرة» .

تكفير الذنوب

روى البخارى ومسلم عن عائشة (رضى الله عنها) قالت : قال رسول الله ﷺ : «ما من مرض ، أو وجع يصيب المؤمن إلا كان كفارة لذنوبه حتى الشوكة يشاكها أو النكبة ينكبها» .

كتابة أجر عمل صالح لم تفعله

روى البخارى فى صحيحه ، عن أبى موسى الأشعرى (رضى الله عنه) قال: سمعت النبى ﷺ - غير مرة ولا مرتين - يقول : «من كان يعمل عملا من حى ، فشغله عنه مرض» أو قال: «سفر أو سقم؛ كتب له كصالح ما كان يعمل وهو صحيح» .

الجنة عوضا عن العمى

أخرج البخارى ، عن أنس بن مالك (رضى الله عنه) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: إذا ابتليت عبدى بحبيته - أى عينيه - ثم صبر ، عوضته الجنة» .

من رضى له الرضى

أخرج أبو عيسى الترمذى وقال: حديث حسن غريب ، عن أنس بن مالك (رضى الله عنه) عن النبى ﷺ أنه قال: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله عز وجل ، إذا أحب قوما ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضى ، ومن سخط فله السخط» .

الخير كله للمؤمن

روى مسلم فى صحيحه عن صهيب بن سنان (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ قال: «عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر ، فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيرا له» .

ثواب خمسين صديقا

أخرج ابن أبى الدنيا ، والبيهقى فى الشعب ، عن الحسن قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم على أصحابه فقال: «هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ويجعله بصيرا ، ألا إنه من رغب فى الدنيا ، وطال أمله فيها ، أعمى الله قلبه على قدر ذلك ، ومن زهد فى الدنيا وقصر فيها أمله أعطاه الله علما بغير تعلم ، وهدى بغير هداية ، ألا إنه سيكون بعدكم قوم لا يستقيم لهم الملك إلا بالقتل والتجبر ، ولا الفنى إلا بالفخر والبخل ، ولا المحبة إلا باتباع الهوى ، ألا فمن أدرك ذلك الزمان منكم فصبر على الفقر وهو يقدر على الفنى ، وصبر على البغضاء وهو

يَقْدِرُ عَلَى الْخَبَةِ ، وَصَبَرَ عَلَى الذَّلِّ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْعِزِّ ، لَا يَرِيدُ بِذَلِكَ إِلَّا وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى ، أَعْطَاهُ اللَّهُ ثَوَابَ حَمْسِينَ صَدِيقًا .

صَبَرَ عَلَى فَقْدِ وَلَدٍ فَأَعْطَاهُ اللَّهُ سَبْعَةَ

رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالطَّبْرَانِيُّ ، عَنْ الرِّمِصَاءِ أُمِّ سَلِيمٍ - رَحِمَهَا اللَّهُ - أَنَّهَا قَالَتْ: تَوَفَّى ابْنُ لِي ، وَزَوْجِي أَبُو طَلْحَةَ غَائِبٌ ، فَقُمْتُ فَسَجَّيْتُهُ فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ ، فَقَدِمَ أَبُو طَلْحَةَ ، فَقُمْتُ فَهَيَّأتُ لَهُ إِفْطَارَهُ ، فَجَعَلُ يَأْكُلُ ، فَقَالَ: كَيْفَ الصَّبِيُّ ، قُلْتُ: بِأَحْسَنِ حَالٍ بِحَمْدِ اللَّهِ وَمِنْهُ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْذُ اشْتَكَى بِأَسْكَنَ مِنْهُ اللَّيْلَةَ ، ثُمَّ تَصَنَعْتُ لَهُ أَحْسَنَ مَا كُنْتُ أَتَصَنَعُ لَهُ قَبْلَ ذَلِكَ ، حَتَّى أَصَابَ مِنِّي حَاجَتُهُ ، ثُمَّ قُلْتُ:

أَلَا تَعْجَبُ مِنْ جِيرَانِنَا ، قَالَ: مَا لَهُمْ ، قُلْتُ: أَعِيرُوا عَارِيَةً ، فَلَمَّا طَلَبْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَرْجَعْتَ جَزَعُوا ، فَقَالَ: بئْسَ مَا صَنَعُوا ، فَقُلْتُ: هَذَا ابْنُكَ كَانَ عَارِيَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ قَبِضَهُ إِلَيْهِ ، فَحَمْدُ اللَّهِ وَاسْتَرْجِعْ ، ثُمَّ غَدَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ ، قَالَ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهَا فِي لَيْلَتِهِمَا» ، قَالَ الرَّاوِيُّ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْمَسْجِدِ سَبْعَةَ كُلَّهُمْ قَدْ قَرَأُوا الْقُرْآنَ .

نِيلَ رِضْوَانُ اللَّهِ بِكَلِمَةٍ

أَخْرَجَ ابْنُ مَاجَهٍ وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ ، عَنْ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لِيَتَكَلَّمَ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ ، مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ بِهِ مَا بَلَغَتْ ، فَيَكْتُبَ اللَّهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَتَكَلَّمَ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ ، مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ بِهِ مَا بَلَغَتْ ، فَيَكْتُبَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» .

تَضَحَّكَ النَّاسُ فَتَهَوَّى فِي جَهَنَّمَ

أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا بِسَنَدٍ حَسَنٍ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لِيَتَكَلَّمَ بِالكَلِمَةِ يَضْحَكُ بِهَا جُلَسَاءَهُ ، يَهْوَى بِهَا أَبْعَدَ مِنَ الثَّرِيَاءِ» أَيْ أَبْعَدَ أَعْلَى النَّارِ .

لا تعير أخاك ولك الأجر

أخرج أحمد والطبراني بإسناد جيد، عن جابر بن سليم وهو - أبو جري الهجيمي - رضى الله عنه، قال: قال أعرابي لرسول الله ﷺ: أوصنى، قال: «عليك بتقوى الله، وإن امرؤ عيرك بشيء يعلمه فيك، فلا تعيره بشيء فيه، يكن وباله عليه وأجره لك، ولا تسبن شيئا».

الكذاب يعذب في قبره

أخرج البخاري من حديث سمرة بن جندب (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت كأن رجلا جاءني فقال لي: قم، فقمتم معه، فإذا أنا برجلين أحدهما قائم، والآخر جالس، بيد القائم كلوب من حديد، يلقمه في شدة الجالس فيجذبه حتى يبلغ كاهله، ثم يجذبه فيلقمه الجانب الآخر فيمده، فإذا مده رجع الآخر كما كان، فقلت للذي أقامني: ما هذا، فقال: هذا رجل كذاب يعذب في قبره إلى يوم القيامة».

الفضيحة إذا تبعت عورة أخيك

أخرج ابن أبي الدنيا، وأبو داود بإسناد جيد، عن أبي برزة (رضى الله عنه) قال: قال البراء بن عازب: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتهن فقال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه: لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عورتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه، تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته».

عذاب البول والغيبة

أخرج ابن أبي الدنيا، وأبو العباس الدغولي بإسناد جيد، من حديث جابر (رضى الله عنه) قال: كنا مع رسول الله ﷺ في مسيرة، فأتى على قبرين يعذب صاحباهما، فقال: «إنهما يعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان يفتاب الناس، وأما الآخر فكان لا يستتره من بوله».

فدعا بجريدة رطبة، أو جريدتين فكسرهما، ثم أمر بكل كسرة فغrst على قبر،

وقال: «أما إنه سيهون من عذابهما ، ما كانتا رطبتين أو ما لم ييسا» .

ثواب من كظم غيظا

أخرج أبو داود والترمذى وحسنه ، وابن ماجه من حديث معاذ بن أنس (رضى الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ : «من كظم غيظا وهو يقدر على أن يمضيه ، دعاه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، حتى يخيره في أى الخور شاء» .

رد مظلمة أخيك في الدنيا

روى البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : «من كانت لأخيه عنده مظلمة فى عرض أو مال ، فليستحللها منه ، من قبل أن يأتى يوم ، ليس هناك دينار ولا درهم ، إنما يؤخذ من حسناته ، فإن لم يكن له حسنات ، أخذ من سيئات صاحبه ، فزيدت على سيئاته» .

تحيز لك الدنيا بثلاث

أخرج الترمذى ، وقال: حديث حسن غريب ، وابن ماجه: من حديث عبيد الله بن محصن (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : «من أصبح آمنا فى سربه معافى فى بدنه وله قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها» .

اعف عن قريبك يغفر الله لك

روى البخارى ومسلم من حديث عائشة (رضى الله عنها) قالت: قال رسول الله ﷺ : «لما حلف أبو بكر - رضى الله عنه - ألا ينفق على مسطح - وكان قريبه لكونه تكلم فى واقعة الإفك نزل قول الله تعالى:

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور: ٢٢) .

قال أبو بكر: نعم نحب ذلك ، وعاد إلى الإنفاق عليه .

التكبر والثروة في الدنيا

أخرج أحمد من حديث أبى ثعلبة الخشنى (رضى الله عنه) وفيه انقطاع ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أحكم إلينا وأقربكم مجالساً منا في الآخرة ، أحاسنكم أخلاقاً ، وإن أبغضكم إلينا وأبعدكم منا: الثرثارون المتشدقون والمتفيهقون» قالوا يا رسول الله: قد علمنا الثرثارون والمتشدقون ، فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون» .

يحشرون مثل النمل

أخرج الترمذى من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (رضى الله عنهم) وقال: حديث غريب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يحشرون المتكبرون يوم القيامة في مثل صور الذر - تطوهم الناس - ذرا في مثل صور الرجال ، يعلوهم كرسى من الصغار ، ثم يساقون إلى سجن في جهنم يقال له: بولس ، يعلوهم نار الأنيار ، يسقون من طين الخبال عصارة أهل النار» .

كالخمار في الدنيا

روى البخارى ومسلم من حديث أسامة بن زيد (رضى الله عنهما) عن النبى ﷺ : أنه قال: «يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار ، فتندلق أفتابه - أى أمعاؤه - فيدور بها كما يدور الخمار بالرحى ، فيطيف به أهل النار ، فيقولون: ما لك ، فيقول: كنت أمر بالخير ولا آتية ، وأنهى عن الشر وآتية» .

التمس رضا الله في الدنيا

أخرج الترمذى والحاكم ، وفى مسند الترمذى من لم يسم من حديث عائشة (رضى الله عنها): كتب معاوية رحمه الله إلى عائشة (رضى الله عنها): أن اكتبى لى كتاباً توصينى فيه ولا تكثرى ، فكتبت إليه: من عائشة إلى معاوية: سلام عليك ، أما بعد: فإننى سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من التمس رضا الله بسخط الناس ، كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس سخط الله برضا الناس ، وكله الله إلى الناس» والسلام عليك .

الرجم يلغى عذاب الآخرة

أخرج مسلم من حديث بريدة بن الحصيب (رضى الله عنه) أن ماعز بن مالك أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: إني قد ظلمت نفسي وزنيت وإني أريد أن تطهرني ، فرده ، فلما كان من الغد أتاه ، فقال: يا رسول الله: إني قد زنيت فرده الثانية ، فلما كان في الثالثة ، أمر به فحفر له حفرة ، ثم أمر به فرجم .

فكان الناس فيه فريقين ، فقائل يقول: لقد هلك وأحاطت به خطيئته ، وقائل يقول: ما توبة أصدق من توبته ، فقال رسول الله ﷺ : «لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم» .

وجاءت الغامدية فقالت: يا رسول الله ، إني قد زنيت فطهرني ، فردها ، فلما كانت من الغد قالت: يا رسول الله: لم تردني ، لعلك تريد أن تردني كما رددت ماعزا ، فوالله إني لجلبي ، فقال رسول الله ﷺ : «أما الآن فاذهبي حتى تضعي» ، فلما ولدت أتت بالصبي في خرقه ، فقالت: هذا قد ولدته ، قال: «اذهي فأرضعيه حتى تظميه» ، فلما فطمته أتت بالصبي وفي يده كسرة خبز ، فقالت: يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها ، وأمر الناس فرجموها ، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجهه فسبها فسمع رسول الله ﷺ سبه إياها فقال: «مهلا يا خالد: فالذي نفسى بيده ، لقد تابت توبة لو تاهما صاحب مكس لغفر له ، ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت .

الدرجة العالية ببلاء شديد

روى أبو داود ، وابن العبد من حديث محمد بن خالد السلمى عن أبيه عن جده ، وقال صحيح لغيره ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الرجل لتكون له الدرجة عند الله تعالى ، لا يبلغها بعمل حتى يتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك» .

عطاء الله للعاصي استدراج

روى أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب بسند حسن ، عن عقبة بن نافع (رضى الله عنه) عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا رأيت الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته ،

فاعلموا أن ذلك استدراج» ثم قرأ قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا دُسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحَنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤] .

تعجيل العقوبة في الدنيا

أخرج أحمد والطبراني بإسناد صحيح من رواية الحسن البصري (رضى الله عنه) قال: إن رجلا من الصحابة (رضى الله عنهم) رأى امرأة كان يعرفها في الجاهلية فكلّمها ثم تركها ، فجعل الرجل يلتفت إليها وهو يمشي فصدمه حائط ، فأثر في وجهه ، فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال: «إذا أراد الله بعبد خيرا ، عجل له عقوبة ذنبه في الدنيا» .

ثواب الهين اللين في الدنيا

أخرج الترمذى من حديث ابن مسعود (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : «أتدرون من يحرم على النار يوم القيامة ، كل هين لين سهل قريب» .

الحسد جائز في اثنتين

أخرج البخارى ومسلم عن ابن عمر (رضى الله عنهما) عن رسول الله ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق ، ورجل آتاه الله تعالى علما ، فهو يعمل به ويعلمه الناس» .

ثم فسر ذلك في حديث أبى كبشة الأنمارى فقال: «مثل هذه الأمة مثل أربعة: رجل آتاه الله مالا وعلمه فهو يعمل بعلمه في ماله ، ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا ، فيقول: رب لو أن لى مالا مثل مال فلان لكنت أعمل فيه بمثل عمله ، فهما في الأجر سواء» .

وهذا منه حب لأن يكون له مثل ماله فيعمل مثل ما يعمل من غير حب زوال النعمة عنه .

«ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما ، فهو ينفقه في معاصي الله ، ورجل لم يؤته علما ولم يؤته مالا ، فيقول: لو أن لي مثل مال فلان ، لكنت أنفقته في مثل ما أنفقته فيه من المعاصي ، فهما في الوزر سواء» .

ماذا أعددت لآخرتك

روى البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك (رضي الله عنه) عن النبي ﷺ ، قام أعرابي إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب ، فقال: يا رسول الله متى الساعة ، فقال ﷺ : «ماذا أعددت لها؟» قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام إلا أني أحب الله ورسوله ، فقال: «أنت مع من أحببت» .

الفصل الثاني

آدم عليه السلام وعذاب الدنيا

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠] .

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى ومحمد بن جعفر، حدثنا عوف، عن قسامة بن زهير: سمعت الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود، وبين ذلك، والسهل والحزن وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك»، وقال الترمذي: حديث صحيح .

وقد ذكر السدي عن أبي مالك وأبي صالح، عن ابن عباس وعن مرة، عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا:

فبعث الله عز وجل جبريل في الأرض ليأتيه بطين منها، فقالت الأرض: أعوذ بالله منك أن تنقص مني أو تشينني، فرجع ولم يأخذ، وقال رب: إنها عادت بك فأعدتها، فبعث الله ميكائيل، فعادت منه فأعادها، فرجع فقال كما قال جبريل، فبعث ملك الموت، فعادت منه، فقال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره، فأخذ من وجه الأرض وخلط، ولم يأخذ من مكان واحد وأخذ من تربة بيضاء وحمراء وسوداء، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين .

فصعد به قبل التراب حتى عاد طيناً لازباً، واللازب: هو الذي يلزق بعضه ببعض، ثم قال للملائكة: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧١، ٧٢] .

فخلق الله بيده لثلاً يتكبر إبليس عليه، فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة، فمرت الملائكة ففزعوا منه لما رأوه، وكان أشدهم منه فزعا إبليس فكان يمر به

فيضربه ، فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له صلصلة ، فذلك حين يقول سبحانه وتعالى: ﴿مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] .

ويقول: لأمر ما خلقت ، ودخل من فيه وخرج من دبره ، وقال للملائكة: لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد وهذا أجوف لئن سلطت عليه لأهلكته .

نفخ الروح في آدم

فلما بلغ آدم الحين الذي يريد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح ، قال للملائكة: إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له ، فلما نفخ فيه الروح ، فدخلت الروح في رأسه عطس ، فقالت الملائكة: قل الحمد لله ، فقال: الحمد لله ، فقال الله له: رحمك ربك ، فلما دخلت الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة ، فلما دخلت الروح في جوفه ، انتهى الطعام ، فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجله عجلان إلى ثمار الجنة ، وذلك حين يقول الله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧] .

ورى ابن عساكر: قال عمر بن عبد العزيز: لما أمرت الملائكة بالسجود ، كان أول من سجد منهم إسرافيل ، فاتاه الله أن كتب القرآن في جبهته .

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا عقبة بن مكرم ، حدثنا عمرو بن محمد ، عن إسماعيل بن رافع المقبرى ، عن أبي هريرة (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق آدم من تراب ، ثم جعله طينا ثم تركه ، حتى إذا كان حماً مستونا ، خلقه الله وصوره ، ثم تركه حتى إذا كان صلصالا كالْفَخَّارِ ، قال: فكان إبليس يمر به فيقول: لقد خلقت لأمر عظيم ، ثم نفخ الله فيه من روحه ، فكان أول ما جرى فيه الروح بصره وخياشيمه فعطس فلقيه الله رحمة به ، فقال الله: يرحمك ربك ، ثم قال الله: يا آدم اذهب إلى هؤلاء النفر فقل لهم: فانظر ماذا يقولون ، فجاء فسلم عليهم فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، فقال: يا آدم هذه تحيتك وتحية ذريتك ، فقال: يا رب وما ذريتي ، قال: اختر يدي يا آدم ، قال: أختار يمين ربى وكلتا يدي ربى يمين ، فبسط كفه فإذا من هو كائن من ذريته في كف الرحمن ، فإذا رجال منهم أفواههم النور ، وإذا رجل يعجب آدم نوره ، قال: يا رب من هذا ، قال: ابنك

داوود ، قال: يا رب فكم جعلت له من العمر؟ قال: جعلت له ستين ، قال: يا رب ، فأتم له من عمري حتى يكون عمره مائة سنة ، ففعل الله ذلك ، وأشهد على ذلك ، فلما تقدم عمر آدم ، بعث الله ملك الموت ، فقال آدم: أو لم يبق من عمري أربعون سنة ، فقال له الملك: أو لم تعطها ابنك داوود ، فجحده ذلك ، فجحدت ذريته ، ونسى فنسيت ذريته» .

أهل الجنة وأهل النار

وقال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا الهيثم بن خارجة ، حدثنا أبو الربيع عن يونس بن ميسرة ، عن أبي إدريس ، عن أبي الدرداء ، عن النبي ﷺ قال:

«خلق الله آدم حين خلقه ، فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأهم الدر ، وضرب كتفه اليسرى ، فأخرج ذرية سوداء كأهم الحمم ، فقال للذى في يمينه: إلى الجنة ولا أبالي ، وقال للذى في كتفه اليسرى: إلى النار ولا أبالي» .

وفي رواية زيد فيها:

فقالوا يا رسول الله فيم العمل ، قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» .

وفي رواية أخرى: خرج النبي ﷺ ومعه كتابان ، قالوا: ما هذا يا رسول الله ، قال: «أما هذا الكتاب ففيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم وبلادهم ، وأما هذا الكتاب ففيه أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم وبلادهم» .

وفي حديث صححه العلامة محمد ناصر الدين الألباني ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضى الله عنهما) قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان» فقلنا: لا يا رسول الله ، إلا أن نخبرنا ، فقال: للذى في يده اليمنى: «هذا كتاب من رب العالمين ، فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم ، فلا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبدا» ، ثم قال للذى في شماله: «هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم ، فلا يزداد فيهم ، ولا ينقص منهم» ، فقال أصحابه: ففيم العمل يا رسول الله إن كان أمر قد فرغ منه ، فقال: «سدّدوا

وقاربوا ، فإن صاحب الجنة يختتم له بعمل أهل الجنة ، وإن عمل أى عمل ، وإن صاحب النار ، يختتم له بعمل أهل النار وإن عمل أى عمل» ، ثم قال رسول الله ﷺ بيديه فبذهما ، ثم قال: «فرغ ربكم من العباد فريق في الجنة وفريق في السعير» ، صحيح الجامع الألبانى رقم (٨٤٨) .

الميثاق من ظهر آدم

وقال الإمام مالك بن أنس (رضى الله عنهما) فى موطنه ، عن زيد بن أبى أنيسة: أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، أخبره عن مسلم بن يسار الجهنى ، أن عمر ابن الخطاب سئل عن هذه الآية:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢] .

فقال ابن الخطاب (رضى الله عنه): سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها ، فقال: «إن الله خلق آدم عليه السلام ، ثم مسح على ظهره يمينه فاستخرج منه ذرية ، قال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية ، قال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون» .

فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل ، قال رسول الله ﷺ : «إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة ، فيدخل به الجنة ، وإذا خلق الله العبد للنار ، استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار ، فيدخل به النار» ، رواه الترمذى وقال: حديث حسن .

وروى الإمام أحمد بإسناد جيد قوى على شرط مسلم ، حدثنا حسين بن محمد حدثنا جرير - يعنى ابن حازم - عن كلثوم بن جبر ، عن سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس (رضى الله عنهما) عن النبى ﷺ قال:

«إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها ، فنثرها بين يديه ، ثم كلمهم قبلا ، قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ

تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ . [الأعراف: ١٧٢] .

﴿ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَنْتَ عَلِيمُ السَّاتِرِينَ ﴾ ﴿١٧٣﴾

[الأعراف: ١٧٣] .

إكرام الله لآدم عليه السلام

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٣٠﴾ [البقرة: ٣٠] .

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَأِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿٣١﴾ [البقرة: ٣١] .

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿٣٢﴾ [البقرة: ٣٢] .

﴿ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنْثَاهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ ﴿٣٣﴾ [البقرة: ٣٣] .

أخبر الله تعالى: أنه خاطب الملائكة قائلاً لهم: إني جاعل في الأرض خليفة، فهو أعلم بما يريد أن يخلق من آدم وذريته الذين يخلف بعضهم بعضاً .

فأخبرهم بذلك على سبيل التنويه بخلق آدم وذريته، كما يخبر بالأمر العظيم قبل كونه، فقالت الملائكة سائلين على وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة، لا على وجه الاعتراض والتنقص لبنى آدم، والحسد لهم، كما قد يتوهمه بعض جهلة المفسرين .

﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠] .

قال قتادة: قيل: علموا أن ذلك كائن بما رأوه ممن كان قبلهم وهم الجن .

وقال عبد الله بن عمر بن الخطاب (رضى الله عنهما): كانت الجن قبل آدم بألفى عام، فسفكوا الدماء، فبعث الله لهم جنداً من الملائكة فطردوهم إلى جزائر البحور .

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] .

أى أننا نعبدك دائما لا يعصيك منا أحد فإن كان المراد بخلق هؤلاء أن يعبدوك ، فيها نحن لا نفتر ليلا ونهارا عن عبادتك .

﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] .

أى أعلم من المصلحة الراجحة فى خلق هؤلاء ما لا تعلمون ، أى سيوجد منهم الأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء والصالحون .

ثم قالت الملائكة: لن يخلق الله أعلم ولا أعبد منا ، وأضمرنا ذلك فى صدورهم .

الكرامات

فلقد أكرم الله سيدنا آدم بأربع كرامات وهى:

١ - خلقه بيده:

فلقد قال مجاهد ، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب (رضى الله عنهم جميعا) بإسناد جيد على شرط مسلم:

(خلق الله أربعة أشياء بيده: العرش ، والقلم ، وآدم ، وجنة عدن ، ثم قال لسائر الخلق: كن فكان) .

ورواه الترمذى وزاد فيه: (واحتجب من الخلق بأربع: بنار وظلمة وبنور وظلمة) .

٢ - نفخ فيه من روحه:

حيث يقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ﴾ (٢١) [الحجر: ٢٩] .

٣ - وأمر الملائكة بالسجود له:

حيث يقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ﴾ (٢١) [الحجر: ٢٩] .

٤ - علمه الأسماء كلها:

حيث يقول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي

يَأْسَمَاءَ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ [البقرة: ٣١] .

وجاء في الخبر:

أن آدم عليه السلام قال: إن الله تعالى أعطى أمة محمد ﷺ أربع كرامات لم أعطانيها:

١ - أن قبول توبتي كان بمكة ، وأمة محمد يتوبون في كل مكان فيقبل الله توبتهم .

٢ - إنني كنت لا لبسا ، فلما عصيت الله جعلني عريانا ، وأمة محمد يعصون الله عراة فيلبسهم الله .

٣ - إنني لما عصيت ربى فرق بيني وبين امرأتي حواء ، وأمة محمد يعصون الله ولا يفرق بينهم وبين أزواجهم .

٤ - إنني عصيت الله في الجنة فأخرجني منها ، وأمة محمد يعصون الله خارج الجنة فيدخلونها بالتوبة .

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [البقرة: ٣١] .

إن كنتم صادقين في ظنكم أنبئوني بأسماء هؤلاء .

قال ابن عباس (رضي الله عنهما): هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس ، مثل: إنسان ، دابة ، أرض ، سهل ، بحر ، جبل ، حمار ، جل ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها .

وقال مجاهد: علمه اسم الصفحة ، القدر ، حتى الفسوة ، والفسية .

وقال الربيع: علمه أسماء الملائكة ، وقال عبد الرحمن بن زيد: علمه أسماء ذريته .

والقول الراجح:

علم الله آدم الأسماء كلها صغيرها وكبيرها على التمام والكمال ، فلقد روى البخاري ومسلم من طريق سعيد وهشام ، عن قتادة عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) عن رسول الله ﷺ قال: «يَجْتَمِعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُونَ: لَوْ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا فَيَأْتُونَ آدَمَ ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ ، وَعَلَّمَكَ الْأَسْمَاءَ

كلها...» .

ومعنى الأسماء كلها: أى أسماء كل ما هو كائن إلى يوم القيامة من إنس وجن وشجر وحجر ومدر وحيوانات وطيور وجمادات ، والله تعالى أعلم وأعلى .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ٣٤ ﴾

[البقرة: ٣٤] .

وقال الله تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدًا إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ١٢ ﴾

[الأعراف: ١٢] .

قال الحسن البصري: (قاس إبليس وهو أول من قاس)

وقال محمد بن سيرين: أول من قاس إبليس ، وما عبت الشمس ولا القمر إلا بالمقاييس ، رواهما ابن جرير .

ومعنى هذا:

إن إبليس نظر نفسه بطريق المقايسة بينه وبين آدم ، فرأى نفسه أشرف من آدم ، فامتنع من السجود له ، مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسجود ، والقياس إذا كان مقابلاً للنقص ، كان فاسد الاعتبار ، ثم هو فاسد فى نفسه فإن الطين أنفع وخير من النار ؛ لأن الطين فيه الرزانة والحلم والأناة والنمو ، والنار فيها الطيش والخفة والسرعة والإحراق .

وقال ابن مسعود وابن عباس وجماعة من الصحابة ، قالوا: كان إبليس رئيس الملائكة بالسماء الدنيا ، وكان اسمه عزازيل ، والحارث وكنيته: أبو كردوس ، وكان من حى من الملائكة ، يقال لهم: الجن ، وكانوا خزان الجنان ، وكان إبليس من أشرفهم ، ومن أكثرهم علماً وعبادة ، وكان أولى الأجنحة الأربعة ، فمسخه الله شيطاناً رجيماً .

وقال الله تعالى فى سورة ص :

﴿ قَالَ فَادْخُلْهَا أَنْتَ وَرَجِيمٌ ٧٧ ﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿ ٧٨ ﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿ ٧٩ ﴾

قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿ ٨٠ ﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿ ٨١ ﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿ ٨٢ ﴾ إِلَّا عِبَادَكَ

مِنْهُمْ الْمُخَلَّصِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٨﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٩﴾

[ص: ٧٧ - ٨٥] .

مناظرة إبليس وآدم مع الله

قال ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال:

(إن إبليس لعنه الله تعالى قال: يا رب أخرجتني من الجنة من أجل آدم وإنني لا أستطيعه إلا بسلطانك ، قال: فأنت مسلط ، قال: يا رب زدني ، قال: لا يولد له ولد إلا ولد لك مثله ، قال: يا رب زدني ، قال: أجعل صدورهم مساكن لكم ، وتخرجون منهم مجرى الدم ، قال: يا رب زدني ، قال: أجلب بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما بعدهم الشيطان إلا غرورا) .

فقال آدم عليه السلام:

(يا رب: قد سلطته عليّ وإنني لا أمتنع عنه إلا بك ، قال تبارك وتعالى: لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه من قرناء السوء ، قال: يا رب زدني ، قال: الحسنة بعشر وأزيد ، والسيئة واحدة أو أمحوها ، قال: يا رب زدني ، قال: باب التوبة مفتوح ما كانت الروح في الجسد ، قال: يا رب زدني ، قال: ﴿ قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣] .

وذكره ابن كثير في تفسيره ص ٥٩ جزء ٤ .

الطرد من الجنة

يقول الله تعالى:

﴿ وَفَلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٣٥] .

﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة: ٣٦] .

ولقد حكى السدى عن أبى صالح وأبى مالك ، عن ابن عباس (رضى الله عنهما) وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن ناس من الصحابة أنهم قالوا:

(أخرج إبليس من الجنة ، وأسكن آدم الجنة ، فكان يمشى فيها وحشياً ليس له فيها زوج يسكن إليها ، فنام نومة ، فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة ، خلقها الله من ضلعه ، فسألها: من أنت ، قالت: امرأة ، قال: ولم خلقت ، قالت: لتسكن إلى ، فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه: ما اسمها يا آدم ، قال: حواء ، قالوا: ولم كانت حواء ، قال: لأنها خلقت من ضلع حى .

وقال البخارى ومسلم فى الصحيحين من حديث زائدة ، عن ميسرة الأشجعى عن أبى حازم ، عن أبى هريرة (رضى الله عنه) عن النبى ﷺ أنه قال: «استوصوا بالنساء خيراً ، فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج شيء فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً» .

ولما خلق الله حواء ، أصبحت حياة آدم معها فى الجنة ، يأكلان ما لذ وطاب من أشجارها ، وقال الله لهما: لا تقربا هذه الشجرة ، قالوا: إنها شجرة الكرم ، وأنها الخنطة ، والنخلة ، والتينة والله أعلم .

واختلف المفسرون وأهل العلم على مكان الجنة: أهي فى السماء ، أم فى الأرض ، وهل هى جنة المأوى ، أم هى جنة الخلد ، أم هى جنة أعداها الله لهما ، وجعلها دار ابتلاء ، وليست جنة الخلد التى جعلها الله دار جزاء .

وقال الله تعالى فى سورة طه:

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّخِذُمْ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴾ (١٣٠)

[طه: ١٢٠] .

وقال الله سبحانه فى سورة الأعراف:

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ

إِلَّا أَنْ تَكُونَا مُلْكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ [الأعراف: ٢٠] .

﴿ وَقَسَمْنَا لَكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْتَّاصِينَ ﴾ ﴿٢١﴾ فَذَلَّهْمَا يُرْوَرُ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ [الأعراف: ٢١، ٢٢] .

العسرى

قال الشيطان لعنه الله: ما نهاكما ربكما عن أكل هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، أى لو أكلتما منها لصرتما كذلك .

وكانت حواء أكلت من الشجرة قبل آدم ، وهى التى شجعتة على أكلها .

وفى كتاب التوراة التى بأيدى أهل الكتاب: أن الذى دل حواء على الأكل من الشجرة هى الحية ، وكانت من أحسن الأشكال وأعظمها ، فأكلت حواء عن قولها وأطعمت آدم عليه السلام ، فعند ذلك انفتحت أعينهما وعلمتا أنهما عريانان ، فوصلا من ورق التين وعملا مآزر ، والله أعلى وأعلم .

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسن بن أسكاب ، حدثنا على بن عاصم عن سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن أبى كعب ، قال: قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ رَجُلًا طَوَالًا ، كَثِيرَ شَعْرِ الرَّأْسِ كَأَنَّهُ نَخْلَةٌ سَحُوقٌ فَلَمَّا ذَاقَ الشَّجَرَةَ سَقَطَ عَنْهُ لِبَاسُهُ ، فَأَوَّلُ مَا بَدَأَ مِنْهُ عَوْرَتُهُ ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى عَوْرَتِهِ ، جَعَلَ يَشْتَدُّ فِي الْجَنَّةِ ، فَأَخَذَتْ شَعْرَهُ شَجَرَةٌ فَنَازَعَهَا ، فَنَادَاهُ الرَّحْمَنُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا آدَمُ ، مَنِ تَفَرُّ ، فَلَمَّا سَمِعَ كَلَامَ الرَّحْمَنِ قَالَ: يَا رَبِّ .. لَا وَلَكِنْ اسْتَحْيَاءُ» .

وروى الحافظ ابن عساكر ، عن مجاهد قال: أمر الله ملكين أن يخرجآ آدم وحواء من جواره ، فنزع جبريل التاج عن رأسه ، وحل ميكائيل الإكليل عن جبينه ، وتعلق به غصن ، فظن آدم أنه قد عوجل بالعقوبة ، فنكس رأسه يقول: العفو ، العفو ، فقال الله تعالى: أفرار منى ؟ قال: بل حياء منك يا سيدى .

وقال الأوزاعى عن حسان - وهو ابن عطية - : مكث آدم فى الجنة مائة عام ، وفى

رواية ستين عاما ، وبكى على الجنة سبعين عاما ، وبكى على خطيئته سبعين عاما ، وبكى على ولده هابيل حين قتل أربعين عاما .

وعن الحسن قال: أهبط الله آدم بالهند ، وحواء بمجدة ، وإبليس بدستميان من البصرة على أميال ، وأهبطت الحية بأصبهان .

وقال السدي: نزل آدم بالهند ونزل معه الحجر الأسود ، وقبضة من ورق الجنة فنبت شجرة الطيب هناك .

وقال عبد الرزاق: قال معمر: أخبرني عوف ، عن قسامة بن زهير ، عن أبي موسى الأشعري (رضى الله عنه) قال: أن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض علمه صنعة كل شيء ، وزوده من ثمار الجنة فثماركم هذه من ثمار الجنة ، غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير .

توبة آدم

يقول الله تعالى: ﴿ فَلَقِيَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوْبَابُ الرَّحِيمُ ٣٧ ﴾ [البقرة: ٣٧] .

قال ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، قال: الكلمات التي تاب الله بها على آدم هي: (اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، رب إنني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الراحمين ، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، رب إنني ظلمت نفسي فتاب على إنك أنت التواب الرحيم) .

وروى الحاكم في مستدركه من طريق سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (رضى الله عنهما): ﴿ فَلَقِيَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوْبَابُ الرَّحِيمُ ٣٧ ﴾ [البقرة: ٣٧] قال آدم: يا رب .. ألم تخلقني بيدك ، قيل له: بلى ، ونفخت في من روحك ، قيل له: بلى ، وعطست فقلت يرحمك الله ، وسبقت رحمتك غضبك ، فقليل له: بلى ، وكتبت على أن أعمل هذا ، فقليل له: بلى ، قال: أفرأيت إن تبت هل أنت راجعي إلى الجنة ، قال: نعم) .

وروى الحاكم والبيهقي وابن عساكر من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : «لما اقترف آدم

الخطيئة قال: يا رب.. أسألك بحق محمد إلا غفرت لي ، فقال الله: كيف عرفت محمدا ، ولم أخلقه بعد ، فقال: يا رب ، لأنك لما خلقتني بيدك ، ونفخت في من روحك ، رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبا: لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنك لم تضيف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك ، فقال الله: صدقت يا آدم ، إنه لأحب الخلق إلى وإذا سألتني بحقه فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك» .

قال البيهقي: تفرد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف .

وفاة آدم عليه السلام

قال محمد بن إسحاق: لما حضرت آدم الوفاة عهد إلى ابنه شيث (وهو الابن الذي وهبه الله خلفا بعد مقتل هابيل) وعلمه ساعات الليل والنهار ، وعلمه عبادات تلك الساعات ، وأعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك .

وكانت الوفاة يوم الجمعة ، حيث جاءته الملائكة بحنوط وكفن من عند الله عز وجل من الجنة ، وعزوا فيه ابنه ووصيه شيثا عليه السلام ، وقال ابن إسحاق: الشمس كسفت والقمر سبعة أيام بلياليهن .

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا هذبة بن خالد ، حدثنا حماد بن سلمة عن حميد ، عن الحسن ، عن يحيى - وهو ابن ضمرة السعدي قال:

رأيت شيخا بالمدينة يتكلم فسألت عنه فقالوا: هذا أبي بن كعب ، فقال: إن آدم لما حضره الموت قال لبنيه: أي بنى . . إني أشتهى من ثمار الجنة .

قال: فذهبوا يطلبون له ، فاستقبلتهم الملائكة ومعهم أكفانه وحنوطه ومعهم الفؤوس والمساحي والمكاتل ، فقالوا لهم: يا بني آدم: ما تريدون وما تطلبون - أو ما تريدون ، وأين تطلبون ، قالوا:

أبونا مريض واشتهى من ثمار الجنة ، فقالوا لهم: ارجعوا فقد قضى أبوكم فجاءوا ، فلما رأتهم حواء عرفتهم ، فلاذت بآدم ، فقال: إليك عنى فإنى أتيت من قبلك ، فخلى بينى وبين ملائكة ربي عز وجل .

فقبضوه وغسلوه وكفنوه وحنطوه، وحفروا له ولحدوه وصلوا عليه، ثم أدخلوه قبره، فوضعوه في قبره، ثم حثوا عليه، ثم قالوا: يا بني آدم: هذه سبتكم إسناده صحيح .

واختلفوا في موضع دفنه، فالمشهور أنه دفن عند الجبل الذي أهبط فيه في الهند، وقيل: بجبل أبى قبيس بمكة، ويقال: أن نوحا عليه السلام، لما كان زمن الطوفان حمله هو وحواء في تابوت فدفنهما بيت المقدس، حكى ذلك ابن جرير .

وقد ماتت بعده حواء بسنة واحدة، وكان عمر آدم حين الوفاة اكتب في اللوح المحفوظ ألف سنة، وسبحان ربى وجل المتفرد بالبقاء .

قاييل وعذاب الدنيا

يقول الله تعالى:

﴿ وَأَتَىٰ عَلَيْهِم بَنَىٰ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانَا فَتُفْتِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَا قُنْتُكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المائدة: ٢٧] .

﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيْنَا يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِإِيدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

[المائدة: ٢٨] .

﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِيمِي وَلِئَمَّكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

[المائدة: ٢٩] .

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المائدة: ٣٠] .

قال السدي فيما ذكر عن أبى مالك، وعن أبى صالح عن ابن عباس (رضى الله عنهما) وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ :

(أنه كان لا يولد لأدم مولود إلا ولد معه جارية، فكان يزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر، ويزوج جارية هذا البطن غلام البطن الآخر .

حتى ولد له ابنان يقال لهما: هابيل وقاييل، وكان قاييل صاحب زرع، وكان هابيل صاحب زرع، وكان قاييل أكبرهما وكان له أخت أحسن من أخت هابيل، وأن هابيل

طلب أن ينكح أخت قابيل ، فأبى عليه وقال: هي أختي ولدت معي وهي أحسن من أختك وأنا أحق أن أتزوج بها .

فأمره أبوه أن يزوجه هابيل فأبى . . . وأنهما قربا قربانا إلى الله عز وجل أيهما أحق بالجارية . . . وكان آدم عليه السلام قد غاب عنهما ، أتى مكة ينظر إليها .

قال الله عز وجل: هل تعلم أن لي بيتا في الأرض ؟ قال: اللهم لا ، قال: إن لي بيتا في مكة فأتته ، فقال آدم للسماء: احفظي ولدي بالأمانة فأبت .

وقال للأرض فأبت ، وقال للجبال فأبت ، فقال لقابيل . فقال: نعم ، تذهب وترجع وتجد أهلك كما يسرك .

فلما انطلق آدم ، قربا قربانا ، وكان قابيل يفخر عليه ، فقال: أنا أحق بها منك هي أختي وأنا أكبر منك وأنا وصي والدي .

القربان

قال ابن جرير: حدثنا ابن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا عوف عن أبي المغيرة عن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضى الله عنهما) قال: (إن ابني آدم اللذين قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، كان أحدهما صاحب حرث ، والآخر صاحب غنم ، وأنهما أمرا أن يقربا قربانا ، وإن صاحب الغنم أكرم غنمه وأسمنها وأحسنها ، طيبة بها نفسه ، وإن صاحب الحرث قرب أشمر حرثه (الكودن والزوان) نبات سيئ ، غير طيبة بها نفسه .

وفي رواية أخرى:

قرب هابيل جذعة سمينه ، وقرب قابيل حزمة سنبل ، فوجد فيها سنبله عظيمة ففركها وأكلها ، فنزلت النار ، فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل فغضب ، وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختي ، فقال هابيل: إنما يتقبل الله من المتقين .

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي ، حدثنا الأنصاري ، حدثنا القاسم بن عبد الرحمن ،

حدثنا محمد بن علي بن الحسين ، قال: (قال آدم عليه السلام لهابيل وقابيل: إن ربي عهد إلى أنه كائن من ذريتى من يقرب القربان ، فقربا قربانا ، حتى تقر عيني إذا تقبل قربانكما ، فقربا ، وكان هابيل صاحب غنم ، فقرب أكلة غنم خير ماله ، وكان قابيل صاحب زرع فقرب مشاقة من زرعه ، فانطلق آدم معهما ، ومعهما قربانهما ، فصعدا الجبل ، فوضعا قربانهما ثم جلسوا ثلاثتهم آدم وهما ، ينظران إلى القربان ، فبعث الله نارا حتى إذا كانت فوقهما دنا منها عنق ، فاحتمل قربان هابيل وترك قربان قابيل .

فانصرفوا ، وعلم آدم أن قابيل مسخوط عليه ، فقال: ويلك يا قابيل ، رد عليك قربانك ، فقال قابيل: أحببته فصليت على قربانه ، ودعوت له فتقبل قربانه ورد على قربانى ، فقال قابيل لهابيل: لأقتلنك وأستريح منك ، دعا لك أبوك فصلى على قربانك فتقبل قربانك .

القتل

ذكر أبو جعفر الباقر: أن آدم كان مباشرا لتقريبهما القربان ، والتقبل من هابيل دون قابيل ، فقال قابيل لآدم: إنما تقبل منك لأنك دعوت له ولم تدع لى ، وتوعد أخاه فيما بينه وبينه .

فلما كان ذات ليلة أبطأ هابيل فى الرعى ، فبعث آدم أخاه قابيل لينظر ما بظأ به ، فلما ذهب إذا هو به ، فقال له: تقبل منك ولم يتقبل منى .

فقال: إنما يتقبل الله من المتقين ، فغضب هابيل عندها وضربه بحديدة كانت معه فقتله ، وقيل: إنه إنما قتله بصخرة رماها على رأسه وهو نائم فشدخته ، وقيل: بل خنقه خنقا شديدا وعضه كما تفعل السباع فمات ، والله أعلم .

وفى رواية أخرى:

قال عبد الله بن وهب: عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه ، قال: (أخذ برأسه ليقتله ، فاضطجع له وجعل يغمز رأسه وعظامه ، ولا يدرى كيف يقتله ، فجاء إبليس فقال: أتريد أن تقتله ، قال: نعم ، قال: فخذ هذه الصخرة فاطرحها على رأسه ، قال:

فأخذها فألقاها عليه فشدخ رأسه ، ثم جاء إبليس إلى حواء مسرعا ، فقال: يا حواء ، إن قابيل قتل هابيل ، فقالت له: ويحك وأى شيء يكون القتل ، قال: لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك ، قالت: ذلك الموت ، قال: فهو الموت .

فجعلت تصيح حتى دخل عليها آدم وهي تصيح ، فقال: ما لك ؟ فلم تكلمه فرجع إليها مرتين ، فلم تكلمه ، فقال: عليك الصيحة وعلى بناتك وبنى منها برآء .
رواه أيضا ابن أبي حاتم .

مغارة الدم

وبجبل قاسيون شمالي دمشق توجد مغارة يقال لها: مغارة الدم ، مشهورة بأنها المكان الذي قتل قابيل أخاه هابيل عندها ، وذلك مما تلقوه عن أهل الكتاب ، والله أعلم بصحة ذلك .

الدفن

يقول الله تعالى:

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلَقُ أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِي سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ [المائدة: ٣١] .

قال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: جاء غراب إلى غراب ميت ، فحسني عليه من التراب حتى واره ، فقال الذي قتل أخاه: ﴿ قَالَ يُوتِلَقُ أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِي سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ [المائدة: ٣١] .

وقال ليث بن أبي سليم: عن مجاهد: (كان يحمل على عاتقه مائة سنة ميتا ، لا يدرى ما يصنع به يحمله ويضعه إلى الأرض ، حتى رأى الغراب يدفن الغراب فقال: ﴿ قَالَ يُوتِلَقُ أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِي سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ [المائدة: ٣١] .

وقال ابن جرير: حدثنا بن حميد ، حدثنا سلمة عن ابن إسحاق ، عن حكيم بن حكيم أنه حدث عن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضى الله عنهما) أنه كان يقول: (إن أشقى

الناس رجلا لابن آدم الذى قتل أخاه، ما سفك دم فى الأرض منذ قتل أخاه إلى يوم القيامة إلا لحق به منه شر، وذلك أنه أول من سن القتل).

وقال عطية العوفى: (لما قتل قابيل أخاه هابيل ندم فضمه إليه حتى أروح أى ظهرت له رائحة، وعكفت عليه الطيور والسباع تنتظر متى يرمى به فتأكله).

وقال محمد بن إسحاق: عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول: (لما قتله سقط فى يده، أى ولم يدرك كيف يواريه، وذلك أنه كان فيما يزعمون: أول قتيل فى بنى آدم وأول ميت: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِثُ سَوْءَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣١]).

قال: وزعم أهل التوراة أن قابيل لما قتل أخاه، قال له الله عز وجل: يا قابيل أين أخوك هابيل؟ قال: ما أدري، ما كنت عليه رقبيا، فقال الله: إن صوت دم أخيك ليناديني من الأرض، الآن أنت ملعون فى الأرض التى فتحت فاهما فتلقت دم أخيك من يدك، فإن أنت عملت فى الأرض فإنها لا تعود تعطيك حرثها حتى تكون فرعا تائها فى الأرض).

العقوبة

ذكر مجاهد أن قابيل عوجل بالعقوبة يوم قتل أخاه، فعلقت ساقه إلى فخذه، وجعل وجهه إلى الشمس كيفما دارت تنكيلا به، وتعجيلا لذنبه وبغيه وحسده لأخيه.

وقال مجاهد أيضا:

(علقت إحدى رجلى القاتل بساقها إلى فخذهما من يومئذ ووجهه فى الشمس حيثما دارت، دار عليه فى الصيف حظيرة من نار، وعليه فى الشتاء حظيرة من ثلج).

وقد جاء فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة من البغي وقطيعة الرحم».

وقد اجتمع فى فعل قابيل هذا وهذا فإننا لله وإنا إليه راجعون.

وزعم أهل الكتاب فى كتابهم (التوراة) أن الله عز وجل أجل عمر قابيل وأنظر عذابه إلى يوم القيامة، وأنه سكن فى أرض (نود) فى شرق عدن وهم يسمونه (قنين) وأنه ولد له

خنوخ وصارت له ذرية كثيرة) .

وقالوا أيضا:

إن آدم عليه السلام طاف على امرأته فولدت غلاما اسمه (شيث) وقالت: من أجل أنه قد وهب له خلفا من هابيل الذى قتله قابيل .

وقالوا: إن حواء ولدت لآدم أربعين ولدا فى عشرين بطنا .

وقيل: مائة وعشرين بطنا فى كل واحد ذكر وأنثى . أولهم قابيل وأخته قليما . وآخرهم عبد المغيث وأخته أم المغيث .

والله تعالى أعلى وأعلم .

الفصل الثالث

قوم نوح وعذاب الدنيا

نوح رسول الله ﷺ، هو نوح بن لامك بن متو شلخ بن خنوخ - وهو إدريس - بن يرد ابن مهلايل بن قين بن أنوش بن شيث بن آدم أبى البشر عليهم جميعا السلام .

وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ، كما يقول أهل الموقف يوم القيامة .

وكان مولد نوح عليه السلام بعد موت آدم عليه السلام بمائة وست وأربعين سنة .

وكانت الفترة ما بين خلق آدم وبعثه نوح عشرة قرون ، كما قال الحافظ أبو حاتم بن حبان فى صحيحه ، فلقد حدثنا محمد بن عمر بن يوسف ، حدثنا محمد بن عبد الملك بن زنجويه ، حدثنا أبو توبة ، حدثنا معاوية بن سلام ، عن أخيه زيد بن سلام ، سمعت أبا سلام ، سمعت أبا أمامة أن رجلا قال: يا رسول الله ، أنبى كان آدم ، قال: «نعم مكلم» ، قال: فكم كان بينه وبين نوح ، قال: «عشرة قرون» الحديث على شرط مسلم ولم يخرج به .

وفى صحيح البخارى ، عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام» .

الرجال الصالحون فى قوم نوح

روى البخارى: من حديث ابن جريج عن عطاء ، عن ابن عباس (رضى الله عنهما) عند تفسير قول الله تعالى:

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (نوح: ٢٣) .

قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا ، أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ، ففعلوا فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك وانتسخ العلم ، عبت .

وقال ابن جرير فى تفسيره: حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران ، عن سفيان ، عن موسى ، عن محمد بن قيس قال: كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ،

فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم ، كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس ، فقال: إنما كانوا يعبدونهم ، وبهم يسقون المطر فعبدوهم .

وروى ابن أبي حاتم ، حدثنا أحمد بن منصور ، حدثنا الحصن بن موسى ، حدثنا يعقوب عن أبي المطهر ، قال: (ذكروا عند أبي جعفر - هو الباقر - وهو قائم يصلى يزيد بن المهلب ، قال: فلما انتقل من صلاته قال: ذكرتم يزيد بن المهلب: أما إنه قتل في أول أرض عبد فيها غير الله تعالى ، قال ذكر ودا ، قال: كان رجلاً صالحاً ، وكان محباً في قومه ، فلما مات عكفوا حول قبره في أرض بابل ، وجزعوا عليه .

فلما رأى إبليس جزعهم عليه ، تشبه في صورة إنسان ثم قال:

إنى أرى جزعكم على هذا الرجل ، فهل لكم أن أصور لكم مثله ، فيكون في ناديتكم فتذكرونه به ، قالوا: نعم ، فصور لهم مثله ، قال: فوضعوه في ناديتهم وجعلوا يذكرونه ، فلما رأى ما بهم من ذكره ، قال: هل لكم أن أجعل في منزل كل واحد منكم تمثالا مثله ، ليكون له في بيته فتذكرونه ، قالوا: نعم ، قال: فمثل لكل أهل بيت تمثالا مثله ، فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به ، قال: وأدرك أبنائهم فجعلوا يرون ما يصنعون به .

قال: وتناسلوا ودرس أمر ذكرهم إياه ، حتى اتخذها يعبد من دون الله أولاد أولادهم ، فكان أول ما عبد غير الله الصنم الذى سموه ودا) .

طلب نوح من قومه

والمقصود: أن الفساد لما انتشر في الأرض ، وعم البلاء بعبادة الأصنام فيها ، بعث الله عبده ورسوله نوحا عليه السلام يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وقال لهم:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادًا لِلَّهِ مَا لَكُمْ مِنَّ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ

عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ [الأعراف: ٥٩] .

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ [الأعراف: ٦٠] .

﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُ لَيْسَ بِي ضَلَالٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٦١] .

﴿ أَبْلَغُكُمْ رَسُولًا مِّن رَّبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مَنَ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٢] .

ودعاهم نوح إلى الله بأنواع الدعوة في الليل والنهار ، والسر والإجهار بالترغيب تارة والترهيب أخرى ، وكل هذا لم ينجح فيهم ، بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان ، ونصبوا له العداوة في كل وقت وأوان ، وتنقصوه وتنقصوا من آمن به ، وتوعدهم بالرجم والإخراج .

وتلطف نوح معهم في الخطاب ، وترفق بهم في الدعوة إلى الحق ، وقال :

﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَانِئِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَتُعِثَّتْ عَلَيْكُمُ الْآلَةُ أُنْزِلَتْ عَلَيْكُمْ وَأُنْتُمْ هَٰكَذَا كَرِهُونَ ﴾ [هود: ٢٨] .

﴿ وَتَقَوَّمُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَّانَ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُّلتَقُوا رَبَّهُمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا جَاهِلُونَ ﴾ [هود: ٢٩] .

فلبت يدعوهم ألف سنة إلا خمسين وهم ظالمون ، وكان كلما انقضى جيل ، وصوا من بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربه ومخالفته ، وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل منه كلامه ، وصاه فيما بينه وبينه ألا يؤمن بنوح أبدا ما عاش ودائما ما بقى .

وقالوا :

﴿ قَالُوا يَبْنُوخُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأَيْنَا بِنَا تَعْدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴾ [هود: ٣٢] .

[هود: ٣٢] .

﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِالدَّلَالِ إِذَا شَاءَ وَمَا أَنَا بِمُفْعِلٍ فِئَةٍ ﴾ [هود: ٣٣] .

فلما يش نوح من إصلاحهم وفلاحهم ، ورأى أنهم لا خير فيهم ، وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق ، من فعال ومقال ، دعا عليهم فغضب الله عليهم ، فقال :

﴿ قَالَدَبِّ إِن قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴾ [الشعراء: ١١٧] .

﴿ فَافْتَحَ بَابِي وَفَتَحَهُمْ فَتْحًا وَبَحْنِي وَمَنْ مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٨] .

ودعا وقال:

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ١٠﴾ [الفر: ١٠].

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ٢٦﴾ [نوح: ٢٦].

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا أَفْجَارًا كَفَّارًا ٢٧﴾ [نوح: ٢٧].

بناء السفينة

ظل نوح عليه السلام يدعو قومه لترك عبادة الأصنام وعبادة الواحد القهار، ولكنهم داموا على عنادهم وعصيانهم واستهزائهم من الذين آمنوا، حينئذ قال نوح:

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ٢٦﴾ [المؤمن: ٢٦].

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَجُونَ ٢٧﴾ [المؤمن: ٢٧].

قال بعض علماء السلف: لما استجاب الله لنوح، أمره أن يغرس شجرا ليعمل به السفينة، فغرسه مائة سنة، ثم نجره في مائة أخرى، وقيل: في أربعين سنة، والله أعلم.

وكان صنع السفينة من خشب الساج، وقيل: من خشب الصنوبر، وهو نص التوراة، وكان ارتفاعها ثلاثين ذراعا، وكانت ثلاث طبقات، كل طبقة عشرة أذرع، فالطبقة السفلى للدواب والوحوش، والطبقة الوسطى للناس، والعليا للطيور، وكان باب السفينة في عرضها، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها.

وأمر الله تعالى نوحا عليه السلام أن يحمل في السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات وسائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها لبقاء نسلها، وأن يحمل معه أهله، أي بيته إلا من سبق عليه القول منهم.

ويرى ابن عباس (رضي الله عنهما) أن أول ما دخل من الطيور الدرة (نوع من البيغاء) وآخر ما دخل من الحيوانات الحمار، ودخل إبليس متعلقا بذنب الحمار.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثني الليث ، حدثني هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «لما حمل نوح في السفينة من كل زوجين اثنين ، قال أصحابه: وكيف نطمئن - أو كيف نطمئن المواشي ومعنا الأسد ، فسلط الله عليه الحمى ، فكانت أول حمى نزلت في الأرض ، ثم شكوا الفأرة ، فقالوا: الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا ، فأوحى الله إلى الأسد فعطس فخرجت الهرة منه فتنجأت الفأرة منها» .

واختلف العلماء في عدد من كان مع نوح في السفينة .

فعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: كانوا ثمانين نفساً ومعهم نساؤهم .

وعن كعب الأحبار: قال: كانوا اثنين وسبعين نفساً - وقيل: كانوا عشرة .

أما امرأة نوح وهى أم أولاده كلهم وهم: حام ، وسام ، ويافث ، ويام .

حام: أبو الأفارقة ، وسام: أبو العرب ، ويافث: أبو الفرنجة ويأجوج ومأجوج ، ويام:

ويسميه أهل الكتاب: كنعان وهو الذى غرق .

قال الله تعالى:

﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الصَّلَاةُ لِلَّهِ الَّذِي يُخَذِّلُ الْقَوَامَ الْظَالِمِينَ﴾ (٢٨) [المؤمنون: ٢٨] .

﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ (٢٩) [المؤمنون: ٢٩] .

أمره أن يحمد ربه على ما سخر له من هذه السفينة ، فنجاه بها ، وفتح بينه وبين قومه ،

وأقر عينه ممن خالفه وكذبه .

كما قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (١٢) لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ

تَذَكَّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (١٣)

[الزخرف: ١٢، ١٣] .

وهكذا أمر الله سيدنا نوحاً في بادئ الأمر: أن يكون على الخير والبركة وأن تكون

عاقبتها محمودة ، كما قال الله تعالى لرسوله ﷺ :

﴿ وَقَدْ رَزَقَ آدَمَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَأَخْرَجَ صِدْقَ مَخْرُجٍ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ٨٠ ﴾

[الإسراء: ٨٠] .

وقد امتثل نوح عليه السلام هذه الوصية وقال:

﴿ وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا بِإِسْمِ اللَّهِ بِحَبْرِهَا وَمُرْسِنُهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ١١ ﴾ [هود: ٤١] .

الطوفان

ذكر ابن جرير وغيره: أن الطوفان كان في ثالث عشر من شهر آب في حساب القبط

أى يوم ١٣ أغسطس ، يقول الله تعالى:

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ١١ ﴾ [القمر: ١١] .

﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ١٢ ﴾ [القمر: ١٢] .

﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوُجْهِ وَدُشِّرَ ١٣ ﴾ [القمر: ١٣ - ١٤] .

وذلك أن الله تعالى أرسل من السماء مطرا ، لم تعهده الأرض قبله ، ولا تمطره بعده كان كافوا القرب ، وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها ، وارتفع الماء على أعلى جبل فى الأرض خمسة عشر ذراعا ، وهو الذى عند أهل الكتاب ، وقيل: ثمانين ذراعا ، وعمم الماء جميع الأرض طولها وعرضها سهلها وحزنها ، وجبالها وقفارها ورمالها ، ولم يبق على وجه الأرض ممن كان من الأحياء عين تطرف ، ولا صغير ولا كبير .

﴿ وَهِيَ تَجْرَى بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَئِ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ١٤ ﴾ [هود: ٤٢] .

﴿ قَالَ سَوَاءٌ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ

بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ١٥ ﴾ [هود: ٤٣] .

وهذا الابن هو (ياف) وكان كافرا عمل عملا غير صالح ، فخالف أباه فى دينه ، فهلك مع من هلك ، هذا وقد نجا مع أبيه الأجانب فى النسب ، لما كانوا

موافقين في الدين والمذهب .

وقال الله: ﴿ قِيلَ يٰ نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنَسِتُمُوهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٨ ﴾ [هود: ٤٨] .

وهذا أمر من الله لنوح عليه السلام لما نضب الماء عن وجه الأرض ، وأمكن السعى فيها والاستقرار عليها ، أن يهبط من السفينة التي كانت قد استقرت على ظهر جبل الجودي وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور ، وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿ وَقِيلَ يٰ نَاحُ أَتَأْتِرُضْ أَبْلَىٰ مَاءٍ كَيْ وَنَسَمَاءُ أَقْلَىٰ وَغِيصَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ١١ ﴾ [هود: ٤٤] .

وهبط نوح سالماً مباركاً عليه ، وعلى أمم ممن سيولد بعد - أى من أولادك - فإن الله تعالى لم يجعل لأحد ممن كان معه من المؤمنين نسلاً ولا عقباً سوى نوح ، فكان من على الأرض اليوم من سائر أجناس بنى آدم ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة وهم: سام وحام ويافث .

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن سمرة أن النبي ﷺ قال: «سام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم» .

والصحيح أن الأولاد الثلاثة كانوا معه في السفينة هم ونسأؤهم وأمههم ، وهو نص التوراة ، وقد ذكر أن (حاما) واقع امرأته في السفينة فدعا عليه نوح أن تشوه خلقه نظفته ، فولد له ولد أسود ، وهو كنعان بن حام جد السودان ، وقيل: بل رأى أباه نائماً وقد بدت عورته فلم يسترها ، وسترها أخواه ، فهذا دعا عليه أن تغير نظفته ، وأن يكون أولاده عبيداً لإخوته .

ظهرت الأرض

وقال محمد بن إسحاق: لما أراد الله أن يكف ذلك الطوفان ، أرسل ريحاً على وجه الأرض فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض ، فجعل الماء ينقص ويفيض ويدبر ، وكان استواء الفلك على الجودي - فيما يزعم أهل التوراة - في الشهر السابع عشر ليال مضت

منه ، وفى أول يوم من الشهر العاشر رثيت رؤوس الجبال ، فلما مضى بعد ذلك أربعون يوما ، فتح نوح كوة الفلك التى صنع فيها ، ثم أرسل الغراب لينظر له ما فعل الماء فلم يرجع إليه ، فأرسل الحمامة فرجعت إليه لم يجد لرجلها موضعا ، فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها ، ثم مضت سبعة أيام ثم أرسلها لتتظر له ما فعل الماء ، فلم ترجع ، فرجعت حين أمست وفى فيها ورق زيتونة ، فعلم نوح أن الماء قد قل عن وجه الأرض ، ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع إليه ، فعلم نوح أن الأرض قد برزت ، فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة دخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنين ، برز وجه الأرض وظهر البر وكشف نوح غطاء الفلك .

قوس قزح

وفى ذكر أهل الكتاب: أن الله كلم نوحا قائلا له: اخرج من الفلك أنت وامراتك وبنوك ونساء بنيك معك ، وجميع الدواب التى معك ، ولينموا وليكثروا فى الأرض ، فخرجوا ، وابتنى نوح مذبحا لله عز وجل ، وأخذ من جميع الدواب الحلال والطير الحلال ، فذبحها قربانا إلى الله عز وجل ، وعهد الله إليه ألا يعيد الطوفان على أهل الأرض ، وجعل تذكرا الميثاق القوس الذى فى الغمام وهو قوس قزح الذى روى ابن عباس (رضى الله عنهما) أنه أمان من الغرق .

قال بعضهم: فيه إشارة إلى أنه قوس بلا وتر ، أى أن هذا الغمام لا يوجد طوفان كأول مرة ، والله أعلى وأعلم .

وصية نوح

قال الإمام أحمد عن عطاء بن يسار ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضى الله عنهما): (. . .) ثم قال: إن نبي الله نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة ، قال لابنه: إني قاص عليك وصية: آمرك باثنتين ، وأنهاك عن اثنتين:

آمرك بلا إله إلا الله ، فإن السماوات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمه ضمتن لا إله إلا الله - وسبحان الله وبحمده ، فإن بها صلات كل شىء وبها يرزق الخلق .

وأنهاك عن الشر والكبر، قال: قلت - أو قيل يا رسول الله، هذا الشرك قد عرفناه، فما الكبر، أن يكون لأحدنا نعلان حستان لهما شراكان حسان .

قال: «لا»، قال: هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها، قال: «لا»، قال: هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها، قال: «لا»، قلت - أو قيل: يا رسول الله، فما الكبر، قال: «سفه الحق وغمط الناس»، وهذا إسناده صحيح ولم يخرجوه .

قبر نوح

عن ابن عباس قال: إن نوحا بعث وله أربعمئة وثمانون سنة، وأنه عاش بعد الطوفان ثلاثمئة وخمسين سنة، فيكون قد عاش على هذا ألف سنة وسبعمئة وثمانين سنة، أما قبره عليه السلام بالمسجد الحرام لما يرويه ابن جرير والأزرقي وغيره مرسلًا .

وقيل: إن قبر نوح ببلدة البقاع، تعرف اليوم (بكرك نوح) وهناك جامع قد بنى بسبب ذلك، والله أعلم .